

13 آذار 2013

أوراق بحثية:

الإستراتيجية الأميركية

"الذكية"

لمواجهة حزب الله

حسام مطر*

ملخص تنفيذي

إن نهاية عدوان إسرائيل عام 2006 على لبنان وإخفاقه في تحقيق أهدافه السياسية بوجه حزب الله، أدى إلى زيادة التورط الأميركي في المواجهة مع الحزب ولكن بالإستناد إلى إستراتيجية جديدة قوامها القوة الناعمة. تبرز الورقة كيف تحول الجهد الأميركي نحو المجالات التي تقع خارج النطاق العسكري إلى محاولة ضرب الوعي المجتمعي الذي ينطلق منه حزب الله وذلك من خلال إستخدام أدوات إعلامية، سياسية وثقافية بهدف تشكيل صورة جديدة لحزب الله في الوعي اللبناني والإقليمي تجعل منه معرضاً لإمكانية هزيمة عسكرية في مرحلة لاحقة. تهدف هذه السياسة الأميركية إلى تحقيق أربعة غايات أساسية: تقليص شرعية المقاومة، تعميق الانقسام الوطني حول دورها، عزلها على المستوى الخارجي، وتقيد خياراتها السياسية وقدرتها على المبادرة.

المقدمة

سبع سنوات على نهاية الحرب الإسرائيلية على لبنان, الحرب التي حفرت عميقاً في الوعي السياسي - العسكري الإسرائيلي, وشكلت حافزاً لموجة من الدراسات والتقارير, وعليه كانت الخلاصة الأهم: إسرائيل خسرت الحرب, ولا يُمكن هزيمة حزب الله عسكرياً إلا بعد جهود مدنية شاملة, كونه خصم ذات طبيعة "هجينة"¹. من تلك الخلاصة تشكلت ملامح السياسة الجديدة, تغيير الملعب واللعبة والأدوات والقواعد, إنها سياسة الدمج بين القوة الناعمة والصلبة أو ما يحلو لجوزيف ناي تسميته "بالقوة الذكية" وإن كانت عبارة ناي تلك غير موفقة تماماً فالأصح أنها "إستراتيجية ذكية", أو كما عاد وأطلق عليه ناي "الإستراتيجية الليبرالية - الواقعية"². إذاً هي ست سنوات من حرب جديدة, خلاصة تجارب ودراسات وأبحاث, مجبولة بالدم والهزائم والاستنزاف الأميركي - الإسرائيلي في العراق وأفغانستان ولبنان. إذا, كيف تغيرت السياسة الأميركية تجاه حزب الله منذ عام 2006, وما هي أبرز ملامحها؟

تهدف هذه الورقة إلى إستكشاف التغير الذي طرأ على السياسة الأميركية تجاه حزب الله منذ حرب 2006, وهو تغير جوهري, عميق وشامل. تبرز أهمية فحص هذا التغير على مستويين, **أولاً** على المستوى النظري هي تتيح تقويم فعالية القوة الناعمة ضمن ظروف محددة وهو جدال جوهري يدور مؤخراً بين مؤيدي (الليبراليون أمثال جوزيف ناي, فريد زكريا) ورافضي (المحافظون الجدد بالتحديد) فكرة اللجوء للقوة الناعمة كخيار أساسي.

¹ - (أنظر مثلاً: كيلي روركي, مذهب مواجهة حركات التمرد الأميركي بوجه حزب الله, كلية الأركان في الجيش الأميركي, 2009, دافيد جونسون, القتال الصعب: إسرائيل في لبنان وغزة, مؤسسة راند, كانون الثاني 2012, داني بركوفتش, هل يمكن قطع رؤوس الهيدرا؟ معركة إضعاف حزب الله, مكتبة الشروق الدولية, القاهرة 2009, تقرير لوكالة رويترز بعنوان: "إسرائيل لا يمكنها هزيمة حزب الله, يقول خبراء" بتاريخ 16 كانون الأول 2010. انظر أيضاً فرانكلين لامب, هل يمكن لإسرائيل أن تهزم حزب الله في الحرب المقبلة؟, مجلة الفورين بوليسي, 1 كانون الأول 2010)

² - جوزيف ناي, مستقبل القوة, PUBLICAFFAIRS, نيويورك, 2011, ص. 231

ثانياً أهميتها العملية في أنها تتيح فهم أفضل لسلسلة من الأحداث والسلوكيات السياسية على المستويين اللبناني والإقليمي بإعتبارها جزء من سياسة محددة وليست نتاج الإرتجال والصدفة, وذلك بدوره يتيح إمكانية أفضل للتوقع بمسارات المواجهة في المدى المنظور بالحد الأدنى في لحظة إقليمية يهيمن عليها الإرباك عدم اليقين. تستند الورقة بشكل أساسي على رؤية جوزيف ناي للقوة الناعمة التي كان له سبق التنظير لها منذ بداية التسعينيات بالإضافة إلى " دليل الحكومة الأميركية لمكافحة حركات التمرد" الصادر عن وزارة الخارجية الأميركية عام 2009³.

1. القوة الناعمة: المغنطيس بدل المطرقة

في زمن التهديدات اللامتناهية والعولمة والمصالح المتداخلة والثورة المعلوماتية تصبح القوة الصلبة محدودة التأثير وهو ما أثبتته التجارب في العراق ولبنان وفلسطين وأفغانستان. ولذلك من الأمثل لقوى الهيمنة العالمية (كالولايات المتحدة الأميركية) أن توجه مواردها نحو الضغط وإعادة تشكيل البنى الاجتماعية, والاقتصادية, والفكرية, والثقافية القائمة, وهو ما يصطلح على تسميته "السياسة الخارجية البنيوية" أو القوة الناعمة. والقوة الناعمة هي القدرة على جعل الآخر يقوم بما تريده من خلال دفعه للإعتقاد أن مصالحه تتوافق مع مصالحك.

القوة الناعمة - بحسب منظريها - من شأنها ترميم شرعية الولايات المتحدة في المنطقة وتحد من النزف الأميركي في الموارد والقدرات, وتفتح مسارات جديدة للتأثير والنفوذ, وهو ما يتيح لواشنطن إعادة إنتاج هيمنتها بما يتلاءم مع بنية القوة في الشرق الأوسط. لقد كان انطونيو غرامشي مدركاً ذلك حيث إعتبر أن إحدى العقبان الرئيسية أمام التغيير هي أن القوة المهيمنة (الطبقة البرجوازية) تعيد إنتاج إيديولوجية الهيمنة, لأن هذه الطبقة المهيمنة لا تتحكم فقط بوسائل الإنتاج وسلطة الدولة بل تهيمن أيضاً على القيم والأفكار

³- النص كاملاً متوفر عبر الرابط التالي: <http://www.state.gov/documents/organization/119629.pdf>

والثقافة والعلوم⁴. تستند فكرة القوة الناعمة إلى تغيير الأفكار والقيم والمعايير والتفضيلات لدى المستهدف بما يسمح لقوة الهيمنة بإعادة إنتاج هوية ومصالح المستهدف بالشكل الذي يلائمها. إذاً هي قوة لا تستند إلى القهر والزجر بل إلى ثلاث "وسائل تعاونية" الجذب والإقناع وتحديد الأجندات⁵.

القوة هنا ليست أمر "تملكياً" أي تحدد فقط بما يحوزه طرف ما من موارد (كما في القوة الصلبة) بل هي "علاقة تبادلية" أي ليس لها قيمة ثابتة بل متغيرة بحسب الخصم المقابل وإطار الصراع وزمانه ومكانه ووسائله. يحاج جوزيف ناي (المتخصص في دراسة القوة) بأنه لا يكفي السؤال هل (أ) هو طرف قوي؟ إذ إنه لا يمكن القول إن (أ) قوي، من دون تحديد «قوي» لفعل ماذا؟ أي يجب أولاً تحديد مجال القوة وحقل القوة، وكلاهما يحدد «محتوى القوة أو مضمونها»، لأنه قد يكون (أ) قوياً بمضمون محدد، لكنه ليس كذلك في مضمون آخر. وعليه وإن كان يمكن قياس القوة الصلبة من خلال المدخلات، فإن القوة الناعمة تقاس مبدئياً بالمخرجات ولذلك يحتل المستهدف أهمية وازنة في تحديد هذه القوة. فالقوة الناعمة لا يمكن قياس نتائجها إلا بناء على المعاني والأفكار التي كونها المستهدف بعيد إخضاعه لتأثيرات هذه القوة. إن فعالية القوة الناعمة تتحدد غالباً بمدى ما تحققه من قبول، وشرعية، وإنجذاب عند المستهدف.

2. حزب الله: "هيدرا" لا يمكن قتلها

منذ غزو أفغانستان والعراق ثم العدوان الإسرائيلي على لبنان 2006 بدأت تدرك الولايات المتحدة أن التهديدات اللامتماثلة التي تتمثل بحركات غير-دولية (non-state actors) كحزب الله وحماس وطالبان هي من أبرز التحديات في المنطقة والأهم أنها غير قابلة للمعالجة بالقوة العسكرية فقط مهما بلغت قدرات واشنطن التكنولوجية، ولا بد من جهود

⁴ - يمكن مواجهة "كراسات السجن" لأنطونيو غرامشي التي صدرت بالإنكليزية عن "International publishers", نيويورك 1971.

⁵ - جوزيف ناي، مستقبل القوة، ص. 81 - 109

مدنية شاملة وموازية⁶. فهذه الحركات إمتازت بمرونة تنظيمية عالية، قدرات تعبوية، شرعية سياسية، حاضنة وطنية، رعاية ودعم من قوى إقليمية وازنة لاسيما إيران، وتعاطف في الرأي العام الدولي.

تمكن الخبير الإستراتيجي الإسرائيلي داني بركوفتش من الإحاطة بشكل ملفت بعناصر القوة هذه من خلال كتابه الشهير "هل يمكن قطع رؤوس الهيدرا؟ معركة إضعاف حزب الله"⁷، الصادر عام 2007 عن معهد دراسات الأمن القومي بجامعة تل أبيب. والهيدرا "كائن خيالي له سبعة رؤوس، كلما قَطَعَتْ رأساً منها نبت مكانه رأسان. ومثلما يستحيل التخلص من رؤوس الهيدرا يستحيل اقتلاع المقاومة، ويستحيل القضاء عليها. يمكن إيجاز ما رصده الكاتب في ثلاثة عناصر أساسية هي:

- قوة العقيدة والإيمان، لاسيما مفهوم الإستشهاد الذي يحضر بشكل خاص في الوعي الشيعي من خلال حادثة "كربلاء" أو "النهضة الحسينية"، التي ينتج عنها التمسك بالمقاومة رغم الأثمان العالية.
- قوة التجذر الشعبي للمقاومة وقدرتها الكبيرة على التوسع الاجتماعي.
- قوة العلاقات الإقليمية بين جماعات المقاومة وبعض القوى الإقليمية مثل إيران وسوريا.

كل عنصر من تلك العناصر يحتاج إلى وسيلة أو أكثر لخفض قوته إلى أدنى حد. وباحصل جمع الضعف في كل منها، يمكن التوصل إلى الهدف الاستراتيجي الأساسي وهو "إضعاف المقاومة":

- إضعاف قوة العقيدة بأن تركز إسرائيل والولايات المتحدة من خلفها على محاصرة الثقافة التي تنتجها والتشكيك بها، لتفتيت هذه النواة العقيدية الصلبة التي تشكل مرجعية عليا لكل نشاطات المقاومة وبرامجها. ويرى المؤلف أن من مصلحة إسرائيل أن تنتقل الحركات الجهادية/السنية من

⁶ - أنظر مثلا إلى دراسة لمؤسسة راند، "إعادة البناء تحت النار: دمج الإجراءات المدنية والعسكرية لمكافحة التمرد"، مجموعة من الباحثين، 2009.

⁷ - داني بركوفتش، هل يمكن قطع رؤوس الهيدرا؟ معركة إضعاف حزب الله، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2009.

العراق إلى لبنان لتدخل على خط الانقسام الطائفي المذهبي السني/الشيوعي. وبذلك تظهر أهم حركات المقاومة في حالة تنازع على أساس مذهبي، وهذا يؤدي إلى تضعف "قوة العقيدة" لديهما معاً، ولدى الدوائر المحيطة بهما، وأيضاً لدى الأجيال الجديدة.

- إضعاف الجذر الشعبي عبر فرض الحصار الاقتصادي، والتهمير، وتوجيه الضربات العسكرية للجسد المدني بحجة وجود المقاومة، وتكثيف التغطية الإعلامية التي تبرر الضرب والحصار بوجود المقاومة بحجة الدفاع عن النفس، مع دمج المقاومة دائماً بوصف الإرهاب، حتى يمكن عزلها عن محيطها الاجتماعي، وحرمانها منه كحاضنة طبيعية لها.
- إضعاف قوة الروابط الإقليمية للمقاومة فيكون عن طريق التهيب والترغيب. ويشير الكاتب إلى "إستراتيجية شق المنظومة الشمالية" التي تدعو إلى تركيز الضرب على سوريا لأنها هي الحلقة الأضعف، أو لأنها أقرب لقبول الإجراءات، مقارنة بإيران التي تبدو أقوى، وأكثر استعصاءً على الإجراءات.

3. خيار القوة الناعمة: إستهداف الحاضنة البشرية

من النتائج الهامة لحرب تموز 2006 أنها قادت الولايات المتحدة إلى الإنخراط بشكل شامل ومباشر في مواجهة حزب الله، لأن المواجهة تمددت إلى خارج النطاق العسكري بعد فشل الحرب في بلوغ الأهداف السياسية المحددة. وخارج المجال العسكري تملك "إسرائيل" القليل لتساهم به نتيجة عزلتها على المستوى الإقليمي، في حين أن الأميركي قادر على تنفيذ سياسته بشكل أفضل نتيجة نفوذه الواسع في المنطقة وبالتالي هو الأقدر على خوض وقيادة مواجهة سياسية، إعلامية، إقتصادية وثقافية شاملة وبعيدة الأمد بوجه حزب الله وهذا ما بدا جلياً منذ عام 2006. وهنا يمكن الرجوع لشهادة السفير الأميركي حينها في بيروت جيفري فيلتمان أمام الكونغرس في 8 حزيران 2010 حيث يشرح واقع الجهود

الأميركية تجاه حزب الله بعد عام 2006، مثلًا دفعت الولايات المتحدة خلال هذه السنوات الأربع فقط أكثر من مليار دولار لتعزيز القوى الأمنية اللبنانية بالإضافة لبرامج دعم للقوى المناوئة للحزب في مجالات إجتماعية، تربوية، إعلامية وسياسية متنوعة⁸.

تمتاز الإستراتيجية المتبعة منذ حرب 2006 بخصائص عدة وأهمها: **أولاً** أنها متمحورة حول السكان وليس العدو ذاته أي تستهدف البيئة الحاضنة للمقاومة على مختلف مستوياتها المحلية - الوطنية - ما فوق الوطنية، **ثانياً** يغلب عليها الجهد المدني - السياسي. **ثالثاً** مركبة على مستوى الأدوات والفاعلين، **ورابعاً** تعتمد على معالجة "جذور" حالة المقاومة وليس ظواهرها. إلا أن الخاصية الأولى هي الأبرز. وبحسب الدليل الأميركي فإن عزل المقاومة شعبياً يتحقق عبر:

أ- قطع العلاقات المالية، والإيديولوجية، وحالة الخوف بين المقاومة والسكان، أي أن الرؤية الأميركية تصنف العلاقة بين الطرفين بناء على دوافع ثلاثة: المنفعة، الرضوخ والانتماء العقائدي. وعليه فالمطلوب هو برامج وسياسات تهدف إلى تأمين جملة من الخدمات والمنافع سواء عبر أجهزة الدولة، أم عبر منظمات وأحزاب حليفة أم عبر برامج دعم وتوظيف خارجية حكومية وغير حكومية بما يحد من فعالية الدافع الأول ويخلق بديلاً اقتصادياً داخل البيئة الشيعية بالتحديد. يضاف إلى ذلك السعي إلى إضعاف البنية العقائدية والدينية في الوسط الشيعي لاسيما تلك ذات البعد الثوري، وأخيراً تشجيع حالة الرفض والتمرد على خيارات المقاومة السياسية تحت عناوين مختلفة. ضمن هذا الشق تركز واشنطن ضمن المجتمع الشيعي على تفعيل ودعم المجتمع المدني، رعاية كوادر شبابية، تبادل طلاب، ودعم تنموي بهدف التأثير على العلاقة بين حزب الله وبيئته.

ب- البحث عن خطوط التفسخ، أي حيث يكون تقاطع المصالح بين المقاومة وطرف مؤيد لها أو حليف هو الأضعف، ثم القيام بوضع إسفين في هذا الفسخ عبر استخدام

⁸ - يمكن الإطلاع على النص الحرفي لشهادة فيلتمان عبر الرابط التالي: <http://www.foreign.senate.gov/imo/media/doc/060810%20Feltman-Benjamin%20Testimony.pdf>

أسلوب العصا والجزرة، وهذا ما تشجعه الولايات المتحدة من خلال استقطاب أو إخافة القوى الحليفة للمقاومة لاسيما مع من تعتقد واشنطن أن علاقتهم بالمقاومة ظرفية أو هشة، وهو ما حاولته مع حركة أمل⁹ والتيار الوطني الحر وبعض القوى السنية، ويبدو من هذه الناحية أن نجاحها كان محصوراً إلى حد كبير بالبيئة السنية لأسباب خاصة. في هذا السياق، يشرح جيفري فيلتمان رؤية واشنطن أمام بعض القوى اللبنانية سياسة عزل «حزب الله» لبنانياً، قائلاً: " يجب جعل الحزب في لبنان من دون حلفاء. يجب إحراج أهدافه ومحاصرتها داخلياً، إن هذا يغنيننا عن قتالهم وتعريض استقرار البلد للاهتزاز، ودور 14 آذار الوحيد في هذه المرحلة، هو تسهيل هذه العملية، والانخراط في تكتيكات سياسية تخدم الوصول إليها"، وهذه السياسة تستمد زخمها بفعل إمكان سقوط النظام السوري أي الحليف الإستراتيجي لحزب الله¹⁰.

ت- يجب التصالح مع أو عزل الشخصيات التي تنتمي للمقاومة ولها صلات شخصية تلعب دور الوصل بين المقاومة ومجموعات اجتماعية محددة (عائلية، عشائرية، مناطقية). وفي هذا الإطار يمكن ملاحظة دور بعض رجال الدين والشخصيات الاجتماعية والسياسية الشيعية بالتحديد أو المنتمين سابقاً للمقاومة بهدف لخلق بديل شيعي عن حزب الله يسعى لتحييد جزء من البيئة الشيعية عن مشروع المقاومة، وما كشفته وثائق ويكيليكس في هذا الاتجاه أكثر من كاف¹¹.

4. تقليص النفوذ الوطني لحزب الله

أما على مستوى علاقة المقاومة بالسلطة السياسية أو الحكومة، فتفترض الإستراتيجية الأميركية كما يظهر في الدليل المذكور، إن مواجهة المقاومة تقتضي تمتين سلطة

⁹ - وذلك من خلال حلفاء واشنطن الذين لا ينفكون ينيشون تاريخ العنف بين الحركة وحزب الله، أو من خلال إستفزاز حركة أمل بالقول إن حزب الله إستحوذ على القرار الشيعي وإستوعب الحركة التي لم تعد أكثر من تابعة له مقابل بعض المكاسب السلطوية.

¹⁰ - ناصر شرارة، مبدأ فيلتمان: عزل حزب الله بتفكيك تحالفاته، صحيفة الأخبار، العدد 1751 بتاريخ 7 تموز 2012.

¹¹ - أنظر مثلاً الى دراسة "المستقلون الشيعة في لبنان: ماذا نخبرنا ويكيليكس عن الجهود الأميركية لإيجاد بديل لحزب الله"، مركز غلوريا الإسرائيلي، 22 كانون أول 2011

الحكومة الشرعية، إذ إن نفوذ أحدهما مرتبط بالآخر، أي يتحركان آلياً بطريقة متعكسة. إن كل جهد يعزز سلطة الحكومة يقضم من نفوذ المقاومة. بهذا المعنى تستند فعالية مكافحة المقاومة إلى تحقيق توازن دقيق بين بُعدين: بُعد "تدميري" للمقاومة وبُعد "بنائي" لحكومة شرعية وفعالة. ويستند قياس هذه الفعالية إلى النقاط التالية:

- إذا أصبحت الحكومة تتمتع بالشرعية مع وجود مؤسسات فعالة على كافة المستويات لتلبية حاجات السكان بما فيها من آليات لمواجهة المظالم التي كان تستغلها المقاومة.
- إذا تم تهميش وعزل وفصل المقاومة وقادتها عن السكان، وهذا يتم بصور مختلفة منها: إشاعة قيم وسلوكيات مختلفة عن عقيدة المقاومة الدينية والسياسية، شيطنة المقاومة بإظهارها ميليشيا مذهبية إجرامية غارقة في الفساد الداخلي ومتعطشة للعنف (حملة أحب الحياة التي أطلقتها قوى 14 آذار بعد 2005)، الترويج لفكرة تبعيتها لجهات خارجية، إشاعة الشك حول صدقية قيادتها، وإبراز تناقض المصالح بينها وبين شرائح اجتماعية مختلفة.
- إذا تم حل أو إنهاء حال التعبئة أو دمج قوات المقاومة المسلحة بالبنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للدولة، وهو "للمصادفة" ما تطرحه بعض قوى 14 آذار في سياق الحديث عن حل "لمشكلة" سلاح المقاومة، كالفكرة القائلة بدمجه بالجيش اللبناني.

منذ انطلاقة حزب الله كحركة مقاومة سعت واشتطن إلى احتوائه من خلال "الدولة". وكانت ذروة تلك المحاولات عام 1993 عندما اتفق الأقطاب السياسيون آنذاك على خطة لإرسال الجيش إلى الجنوب، والتي حال دون تطبيقها تدخل الرئيس السوري حافظ الأسد، وهي الحادثة التي عززت علاقة الثقة والتعاون بين الحزب والقيادة السورية بشكل مباشر. طوال فترة الوجود السوري في لبنان كان الحزب مطمئناً لقدرة الدور السوري على ردع السلطة اللبنانية عن التآمر على المقاومة والتصادم معها، وهو ما تحقق وأتاح للحزب

التحلل من الملفات الداخلية وتعقيدها. إلا أن ذلك لم يعد ممكناً في ظل القرار 1559 واغتيال الرئيس الحريري ومن ثم الانسحاب السوري.

في المرحلة التالية، استفادت واشنطن من الفراغ السياسي - الأمني الذي تركه الانسحاب السوري من لبنان لبناء حالة محلية هدفها استنزاف المقاومة وعزلها. بما أن المطلوب هو إظهار الحزب كميليشيا مذهبية خارجية على الشرعية الوطنية كان لا بد من وضعها في حال صدام مع السلطات الشرعية ولذا كان فوز 14 آذار في الانتخابات ضرورياً وهو ما كان لاسيما بعد الانقلاب على التحالف الرباعي ولاحقاً خروج الوزراء الشيعة من الحكومة. طوال تلك الفترة الممتدة من 2005 اعتقدت واشنطن أن بإمكانها عزل المقاومة عن السلطة كلياً تمهيداً للصدام معها، وفي سبيل ذلك قدمت واشنطن دعماً مادياً ولوجيستياً بارزاً للقوات الأمنية اللبنانية لاسيما قوى الأمن الداخلي التي تطمئن واشنطن لها. ولكن التركيبة اللبنانية وقوة المقاومة السياسية ومروحة تحالفاتها السياسية حالت دون إقصاء الحزب وعزله، وبقي الصدام مع الحزب في أغلبه من داخل الحكومة وليس من خارجها. وبالنتيجة تحولت سياسة واشنطن نحو إغراق الحزب في الفوضى الداخلية ولاسيما في السنتين الأخيرتين، أي محاولة إغراقه في فوضى السلطة، بفراغها وفسادها.

في الداخل اللبناني، تعمل طبيعة النظام اللبناني الطائفية والفاسدة على قضم وإستنزاف صورة الحزب ومشروعيته السياسية، لاسيما مع ظهور الحزب بموقف العاجز أمام التوازنات والمصالح الداخلية والخارجية التي تحمي بنية النظام من الإنهيار والتفكك. فالحزب بالغالب يتعاطى مع السياسة الداخلية اللبنانية بإعتباره حركة مقاومة وليس حزباً سياسياً، وهذا مرتبط بالبعد العقائدي للحزب من ناحية وبواقعيته في التعامل مع محدودية الموارد من ناحية أخرى. إن ركون الحزب إلى هذا "الستاتيكي الداخلي"، يؤدي إلى تآكل صورة الحزب وشرعيته لاسيما في البيئة المحايدة أو المتعاطفة، والتي تتعرض شأنها كسائر المجموعات اللبنانية لضغوط إقتصادية وإجتماعية قاسية، وبرز هذا الأثر السلبي بشكل متزايد في ظل الحكومة اللبنانية الحالية التي تتألف بالأصل من قوى 8 آذار الحليفة

لحزب الله. ورغم نجاح الحزب اللافت في نسج تفاهم سياسي مع أبرز القوى المسيحية أي التيار الوطني الحر، إلا أنه عانى فشلًا على مستوى العلاقة مع الطائفة السنية في لبنان التي تمثل الرافعة الشعبية للمشروع المنافس له.

5. شيطنة حزب الله: الوصمة الإجرامية

لا زالت سياسة "شيطنة" حزب الله من قبل الولايات المتحدة وحلفائها في تصاعد مستمر لترسيخ صورة سوداوية وشيطانية عن الحزب، وآخر فصولها تثبيت فكرة أن حزب الله هو بالإضافة إلى كونه "منظمة إرهابية" هو من أهم الشبكات "الإجرامية" في العالم، وهذا جزء جوهري في الإستراتيجية الأميركية الجديدة لإحتواء الحزب. والأخطر هو ربط هذا البُعد الإجرامي بالساحة اللاتينية أي في الحديقة الخلفية للولايات المتحدة حيث يروج الأميركيون إلى سعي الحزب لإستخدام عملياته الإجرامية بهدف نقل أنشطته "الإرهابية" إلى داخل الولايات المتحدة كجزء من إستراتيجية إيرانية هجومية.

تصاعدت في السنوات الأخيرة، التقارير والمقالات والشهادات الأميركية في الكونغرس حول "الشبكة الإجرامية العالمية" لحزب الله، وسنستعرض عينات موجزة منها. في تموز 2010 نشرت صحيفة هآرتس مقالا لـ جاك خوري حول توقيف السلطات المكسيكية شخص لبناني من حزب الله يتعاون مع المافيا المكسيكية، ودليل الكاتب هو مقال في جريدة كويتية لم يذكر إسمها. وفي حزيران من العام نفسه تكتب عضو الكونغرس سو ميريك رسالة "لفت نظر" إلى وزارة الأمن الوطني الأميركي حول تزايد علاقات حزب الله مع مافيا المخدرات المكسيكية. في أيلول 2011 قدم إيان بيمان شهادته أمام الكونغرس بعنوان "حزب الله في النصف الغربي" يؤكد فيها - بالإستناد إلى السلطات المكسيكية - صلة حزب الله بشبكات تهريب البشر المكسيكية منذ نصف عقد من الزمن¹². وفي التوقيت ذاته، يقدم دوغلاس فرج شهادة مماثلة بعنوان "حزب الله في أميركا اللاتينية: تطبيقات للأمن الأميركي"، يعتبر فيها إن الأخطر من النشاط الإجرامي للحزب هو تعزيز

¹² - إيان بيرمان، حزب الله في النصف الغربي للكرة الأرضية، شهادة أمام اللجنة الفرعية للأمن الوطني ومكافحة الإرهاب، 7 تموز 2011

تأثيره السياسي والمالي والعسكري هناك بإعتباره أداة إيرانية وسورية بدرجة أقل ويتمتع برعاية من حكومات المنطقة التي تسعى لتقليد نمودجه لاسيما على الحدود الجنوبية لأميركا¹³.

إلا أن الشهادة الأهم كانت في تموز 2011 والتي قدمها السفير روجر نوريجا حيث وصف حزب الله وفيلق القدس بالأعداء ذوو التصميم والإرادة المميتين. ويشير نوريجا إلى أن نشاط حزب الله قدموا تدريباً على السلاح والمتفجرات لجماعات تهريب المخدرات بالإضافة إلى تعبئة المسلمين نحو التطرف. في الخلاصة يقول السفير "إن حزب الله قد إنخرط مع الولايات المتحدة في إستراتيجية هجومية من الحرب اللامتماثلة على أعتاب حدودنا, وإذا لم تتجاوب الحكومة لهذا التهديد فإن القدرة على حماية الوطن ستتقلص تدريجياً". ولاحقاً إتهم ماثيو ليفيت الحزب بممارسة الأنشطة الإجرامية في أميركا اللاتينية لتمويل نشاطاته الإرهابية لاسيما بعد خوفه من الأحداث في الداخل الإيراني ولاحقاً في سوريا وهو ما دفع الحزب إلى البحث عن مصادر تمويل جديدة. إلا أن ليفيت يشير إلى إن هذه المكاسب أدت إلى إنكشاف الحزب دولياً كجهة إجرامية ولذا "إن تنسيقاً دولياً لمواجهة شبكة حزب الله الإجرامية في هذه اللحظة التي يتهم فيها الحزب في موطنه بجريمة إغتيال الحريري سيؤدي إلى إضعاف شبكات الدعم الدولي للحزب, يفسد سمعته داخلياً وعالمياً, ويظهره كعصابة إجرامية وليس كحركة مقاومة في لبنان"¹⁴. لقد تمكن ليفيت بجملته الأخيرة من تقديم إختصار بليغ وكافي لخلفيات هذه الحملة, وبالمناسبة فإن ليفيت سيصدر قريباً كتاباً يخصصه لهذا الموضوع بعنوان: "البصمة العالمية لحزب الله اللبناني".

إن هذه الإتهامات, رغم هشاشة أدلتها, نفاها الحزب أكثر من مرة وعلى لسان أمينه العام لعدم الحاجة لها من الناحية المادية, ولمخالفتها الأسس العقائدية للمنظمة, وهي تهدف إلى جملة مآرب خبيثة: أولاً, إن مطاردة الحزب كجهة إجرامية أسهل بكثير من ملاحقته

¹³- دوغلاس فرح, حزب الله في أميركا اللاتينية: تطبيقات للأمن الأميركي, شهادة أمام اللجنة الفرعية للأمن الوطني ومكافحة الإرهاب, 7 تموز 2011

¹⁴- ليفيت, ماثيو, "حزب الله : حزب الإحتيال", مجلة الفورين أفيرز, 27 تموز 2011

كمنظمة إرهابية، إذ أن العديد من الدول - كالإتحاد الأوروبي - لم تصنفه منظمة إرهابية بعد. ثانياً إن بعض الدول تظهر تصميمًا أكبر على مكافحة الجريمة بالتعاون مع الولايات المتحدة بعكس مكافحة الإرهاب. ثالثاً، وهو الأهم والأخطر، تهدف هذه الحملة إلى تعبئة الرأي العام الأميركي بوجه حزب الله وترويضه على تقبل فكرة أن حزب الله يشكل خطراً مباشراً وداهماً وقريباً وحيوياً على المصالح والأرض والمواطنين الأميركيين بما يمنح الإدارة الأميركية مستقبلاً قدرة أفضل على ممارسة سياسات عدوانية تجاه الحزب قد تصل إلى التورط العسكري المباشر.

6. تهميش رسالة حزب الله:

تستند الإستراتيجية الأميركية على عدة مكونات، منها مكون أمني، اقتصادي، والأبرز المكون المعلوماتي الذي ينقسم إلى: المعرفة والتأثير.

- المعرفة بالخصم وقبلة بالسكان، وهي المعلومات الضرورية لتأسيس مقاربة محددة تجاه الخصم. ويمكن أن تنقسم هذه المعرفة إلى مستويات عدة: معرفة إستراتيجية (معرفة العوامل الجذرية للمقاومة)، معرفة عملياتية (فهم نقاط القوة والضعف)، معرفة تكتيكية (أفرادها الفاعلين، قدراتها، نواياها، فهم تصورات وهموم واهتمامات المتعاطفين معها). يقدر الأميركيون - كما يرد في دليل مكافحة التمرد - أن "المصدر الإنساني للمعلومات عبر المدنيين أو المعتقلين أو المنشقين عن المنظمة كان له المساهمة الأكبر في نجاح مكافحة حركات التمرد"، وهو ما يفسر هذا الاهتمام الأميركي الكبير باختراق حزب الله كما يظهر في الفترة الأخيرة.

- التأثير: إن فعالية إستراتيجية مواجهة المقاومة يجب أن تستند إلى قدرة تشكيل آراء مجموعات مختلفة من السكان من خلال إرسال الرسائل والأفعال. إن هذه القدرة في التأثير يجب أن تطال الدولة المعنية، الشعب الأميركي، الدول المجاورة ومجتمعات المهاجرين. يجب أن تكون الرسائل الموجهة لكل طرف مناسبة له من دون أن تقع هذه الرسائل في

التناقض وهذا ما يمكن تجنبه عبر انطلاق هذه الرسائل من إستراتيجية واحدة. يجب على إستراتيجية التأثير أن:

أ- تخاطب الدوافع العقائدية، والاجتماعية، والثقافية والسياسية التي تؤثر أو تولد حساً بالمصلحة العامة والهوية المشتركة لدى السكان المستهدفين والولايات المتحدة. في هذا السياق نستذكر تكرار قوى 14 آذار لعبارة "تقاطع المصالح مع الولايات المتحدة" كما في مسألة سلاح المقاومة، والموقف من سوريا وإيران، ورفض مساندة المقاومة الفلسطينية وكل ذلك بحجج ظاهرها السيادة والحرية والاستقلال.

ب- كما يجب أن تسعى إستراتيجية التأثير إلى تهميش أيديولوجية المتمردين بين السكان وكذلك إلى كشف التوترات في الدوافع داخل حركة المتمردين، وهو ما يجري من خلال بث أخبار وشائعات عن دوافع مالية، وإجرامية، ومذهبية، وسلطوية لمراكز القرار في حزب الله.

في سبيل رفع فعالية التأثير من الأفضل أن تتولى جهات محلية توجيه الرسائل المطلوبة للتأثير على السكان (مسؤولون رسميون، قوى سياسية، إعلاميون)، كما أن هذه الرسائل يجب أن تكون بسيطة، قابلة للرسوخ في الذاكرة. وهذا يستلزم "تحليلاً تفصيلياً للجمهور" لكل جزء متمايز من السكان (شيعة، سنة، مسيحيين ..) بالإضافة إلى مقاييس موثوقة لقياس هذه الفعالية. فمثلاً في الخطاب الموجه للمسيحيين يتم التركيز على الرسائل التي تبرز تناقض سلاح المقاومة مع مفهوم الدولة والشرعية، مع السنّة التركيز على الهيمنة السياسية والمذهبية للمقاومة، مع الشيعة على الأعباء والمخاطر التي ينتجها سلوك الحزب على الشيعة ككل.

يعتبر الإعلام بكافة تنوعاته هو الوسيلة الأبرز في توجيه هذه الرسائل. ولكن من التحولات التي برزت في السنوات الأخيرة الاعتماد الأميركي على وسائل إعلام محلية لإيصال الرسائل وذلك لكونها أكثر قدرة على محاكاة الخصوصيات ولا تثير الشبهة والريبة وأكثر

وصولاً للمشاهد وكذلك أقل كلفة من تشييد وسائل إعلام أميركية تبث باللغة العربية. فمؤسسة راند الأميركية مثلاً أوصت بأن "راديو سوا والحرّة جرى تصورها كأدوات للحكومة الأميركية، ورغم كلفتها العالية إلا أنهما لم يحققا نتائج في تشكيل مواقف إيجابية تجاه الولايات المتحدة. إننا نعتقد بأن التمويل المبذول لإذاعة سوا وقناة الحرّة من الأفضل أن يوجه إلى وسائل الإعلام المحلية والصحافيين المحليين المؤيدين للديمقراطية والتعددية"¹⁵. وفي تسريبات ويكيليكس يشير السفير الأميركي في السعودية إلى تأثير أحد البرامج الأميركية التي تبثها MBC على المجتمع السعودي والمرأة تحديداً. وفي السنوات الأخيرة يمكن ملاحظة الكم الملفت من المواقع الإلكترونية والصحف والقنوات التلفزيونية اللبنانية والعربية التي تركز جهداً وموارد للتركيز على حزب الله وهي تتصف بتمويل سخّي وتقنيات عالية وقدرة متقدمة للوصول إلى الجمهور.

وفي سياق "التأثير" ولكن من الجهة المقابلة يجب على إستراتيجية مواجهة المقاومة - وبحسب الدليل المذكور - أن "تمنع الخصم من جمع المعلومات وكذلك من إستخدامها للتأثير على البيئة المعنية. ويجب أن تكون الرسائل الموجهة كردة فعل على رسائل الخصم سريعة لمنع رسائله من الرسوخ في ذهن السكان". لا يكاد ينهي الأمين العام لحزب الله خطاباً إلا وتتوالى الردود عليه خلال دقائق وعلى مدى أيام والهدف التشويش على رسالة الخطاب ووضعها في متاهة الردود المتبادلة والصحب الإعلامي. في ذات السياق يجري أحياناً التركيز على تفاصيل غير ذات أهمية رافقت ظهور السيد، مثلاً الضجة التي أثّرت حول وشم سيف ذي الفقار على معصم أحد مرافقي السيد نصر الله أثناء إطلالته العاشورائية المفاجئة على المنصة العام الماضي، حتى أن صحيفة الشرق الأوسط أفردت مقالاً خاصاً للحديث عن هذا الوشم وأثارته من زاوية مذهبية¹⁶.

¹⁵ - مجموعة باحثين، بناء شبكات إسلامية معتدلة، مؤسسة راند، 2007، ص. 23

¹⁶ - يمكن مراجعة المقال عبر الرابط التالي: <http://www.aawsat.com/details.asp?section=4&issueno=12062&article=653157&feature>

الخلاصة:

سعت الإستراتيجية الأميركية تجاه حزب الله خلال السنوات الست الماضية إلى أربع غايات أساسية: تقليص شرعية المقاومة، تعميق الانقسام الوطني حول دورها، عزلها على المستوى الخارجي، وتقييد خياراتها السياسية وقدرتها على المبادرة. هذه الغايات من شأنها عند حد معين أن تجعل من هزيمة المقاومة عسكرياً أمراً واقعياً كما يعتقد الأميركيون. في الخلاصة، بدل "اصطياد" حزب الله تسعى واشنطن إلى تلوين المحيط الذي يسبح فيه، أي جعل الحزب "جسماً غريباً" داخل البيئة الوطنية والإقليمية بحيث تنبذه تلك البيئة التي يتحرك فيها ومنها، وحينها فقط تصبح فرضية القضاء عليه عسكرياً متاحة. في المحصلة الأولية يبدو أن السياسة الأميركية حققت جملة نجاحات مستفيدة بشكل أساسي من إهتراء النسيج الوطني اللبناني والإحتقان الإقليمي المذهبي وهو ما ساهمت الأزمة السورية في تعميقه بفعل تصويرها كصراع مذهبي بعيداً عن الحسابات السياسية والإستراتيجية.

تمكنت الولايات المتحدة من إستخدام الأزمة السورية في سياق معركتها مع حزب الله، إذ نجحت من تقليص شرعية الحزب وداعمته الأساسية أي إيران على المستويين العربي والإسلامي. يبدو الحزب مدركاً لهذه الخسارة ولكن وإن كانت لن تدفعه إلى تغيير موقفه من الأزمة السورية إلا أنه يسعى للحد منها من خلال محاولة تكريس جهد كبير لتقديم وتفسير وعرض موقفه من الأزمة للجماهير بكل تفاصيلها وخلفياتها لاسيما عبر الإطلاقات الأخيرة لأمينه العام المتكفل بشكل خاص بهذه المهمة الشاقة.

إن واقع الشرق الأوسط كمنطقة مكتظة بالدول الضعيفة أو الفاشلة في ظل أزمة هوية عميقة بفعل غلبة الإنتماءات العصبية والهوية الأولية التي لا تعترف بحدود الجغرافيا السياسية، أي واقع يتصف بهيمنة نخب ذات تبعية لمراكز القوى الدولية لاسيما قوى الرأسمالية المعولمة، ضعف للهويات السياسية، طغيان الإنفعالات التاريخية والعقيدية،

وتناقض بين الإنتماء للدولة والجماعة الخاصة, كل ذلك يعزز فعالية القوة الناعمة الأميركية الناعمة في المنطقة بما فيها بوجه القوى المماثلة لحزب الله كحركة مقاومة.

إلا أن التقويم النهائي لهذه السياسة الأميركية لا زال يحتاج مزيداً من الوقت لأنها بالأصل تهدف إلى إعادة تشكيل هويات وقيم مختلفة وهي عملية تحتاج لسنوات طويلة, كما أن المنطقة تمر بلحظة فوضى تشتعل فيها العصبية ولذا لا بد من مراقبة ما سيرسخ منها بعد إنتهاء هذا المد الطائفي المقيت. يضاف إلى ذلك أن تجربة حزب الله وإنجازاته التاريخية بوجه الكيان الصهيوني لا زالت حية ولها موضعها في النفوس وإن خفت مؤخرًا. والأهم أن الحزب ومن خلال تصريحات قيادته وسلوكه الإعلامي بدأ يدرك بشكل متزايد أهداف وأدوات وطبيعة السياسة الأميركية الجديدة, فكما صرح السيد حسن نصر الله في أحد خطبه الأخيرة " "إننا اليوم نواجه حرباً من نوع آخر تتمثل بالحرب الناعمة وتديرها الإدارة الأميركية والعدو الإسرائيلي مجرد مقاتل فيها.... إنهم يخافون من منظومتنا الفكرية ولذلك هم يعملون للقضاء على هذه المنظومة.... هناك وسائل إعلام وفضائيات تعمل للاستخفاف وتشويه قيم المقاومة والشهادة وكل قيمنا للقضاء على منظومتنا الفكرية والمقدسات التي نؤمن بها ... إنهم عاجزون عن اجتياح أرضنا, لذلك ذهبوا ليجتاحوا عقولنا وأفكارنا وثقافتنا"¹⁷. وعليه بدأ حزب الله في الآونة الأخيرة بمحاولة الإستجابة لهذه السياسة بجملة رسائل وخطوات إعلامية وسياسية وثقافية, ولكن تقويم هذه الخطوات ومدى فاعليتها يحتاج إلى بحث وتوسع في مرحلة لاحقة.

*باحث لبناني في العلاقات الدولية

¹⁷ - مقتطف من خطاب الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله خلال حفل التخرج السنوي الثالث لأبناء شهداء المقاومة الإسلامية, 25 تموز 2012